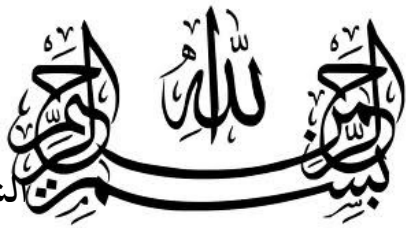

الأحد 2/3/2014 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

أبواب الفرج

التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك.. وبعد:

هذا درس جديد في سلسلة دروس **أبواب الفرج**، ونحن نسأل اللهَ تعالى ببركة عملنا بها أن يُعجِّل لنا بالفرج وأن يجعله محفوفاً بألطافه الخفية.

إن قلب المؤمن معلق بالله عز وجل متيقن أنه لا يُجَلِّي ما نزل به من هَمٍّ وكرب وبلاء إلا الله عز وجل لكنه أدباً مع الله عز وجل يلتزم أسباب الفرج وأبوابه.

وعلى هذا الأساس عُقِدَتْ هذه السلسلة، حيث أن الله جعل لنا أبواباً للفرج يُطلب من كل واحد منا فرداً كان أو أسرة أو مجتمعاً أن يقرع هذه الأبواب كلها، فإن لم يستطع فبأكثرها، فإن لم يستطع فبعضها وعلى أقل تقدير أن يقرع باباً من هذه الأبواب.

ودرسنا اليوم في باب من أبواب الفرج تحت عنوان: **التوبة**.

التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله عز وجل باب عريض من أبواب الفرج فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**» [الإمام أحمد وابن ماجه واللفظ له]

قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52].

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: 98].

في كتب السيرة حديث طويل عن غزوة تبوك أبعد غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تسمى بغزوة العسرة حيث كان السفر بعيد، والحر والعدو شديد، والزاد قليل وطُلب من المؤمنين أن يذهبوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم.

خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة رضوان الله عليهم وبقي في المدينة المنافقون والمسلمون المستضعفون وثلاثة من الصحابة الصالحين المؤمنين غير أن الشيطان غلبهم فتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118] فيذكر لنا سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه حالته –وهو أحد الثلاثة– وقد زلت قدمه بالخطيئة فقال رضوان الله عليه بعد أن مكث يعاتب نفسه أربعين يوماً على ذنبه، وضاقت عليه نفسه كما وصفه القرآن حتى كاد أن يختنق فقال رضي الله عنه: «**فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ**» [البخاري].

كل بني آدم خطاء لكن إذا أذنبت فلا تصر ولا تجاهر ولا تدعو ولا تستصغر الذنب، وإذا تبت إلى الله توبة صادقة فأيقن بصوت يأتيك أن قد جاء الفرج والتوبة صفة المتقين وحالهم حيث أن الله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

وسيدنا عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُوْلُ: «**إِنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا**» [البخاري].

فالفرق ما بيننا وبين المنافقين هو ما بعد الذنب وليس بالذنب:

- هناك من يذنب ويضحك وهناك من يذنب ويبكي.
- هناك من يذنب ويتوب وهناك من يذنب ويصر.
- هناك من يذنب ويجاهر وهناك من يذنب ويستتر.
- هناك من يذنب ويستخف بالذنب وهناك من يذنب ويستعظم الذنب.

إن الله يسلط على عباده سلاسل امتحانه حتى يعودوا إليه ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21].

قد يرى الأب ابنه مقصراً معه فيعاقبه لا لأجل العقوبة بل لأجل أن يعود الابن إلى جادة الصواب فإذا رجع وفهم على والده رفع عنه العقوبة، ولله المثل الأعلى: فما ينوب العباد من بلاء وشدة وامتحان ما هو إلا عقوبة مسلطة من الله على عباده وليس ذلك هدف بل وسيلة لأجل أن يفهم العباد ويرجعوا إليه، أما إذا بقي أصحاب الكبائر والذنوب والتقصير على كبائرهم وذنوبهم وتقصيرهم فكأن العباد لم يفهموا الدرس.

من كان له علاقة مع فتاة لا تحل له، ومن تركت بيت زوجها من غير إذنه، ومن ترك زوجته من أشهر من غير أن يسأل عنها أو عن الإنفاق عليها، ومن لم يتكلم مع والده من أربع سنوات، ومن أكل حق أخواته من الإرث...

فهذه الأزمة فرصة مناسبة جداً لمن زلت قدمه أو أخطأ أو نسي أو جهل أو أصابه طيش أو حمق أن يتوب إلى الله ويرجع عما هو عليه.

إذا تاب العبد أنزل الله عليه فرجاً خاصاً ففي حديث «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ...» السابق يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «جَعَلَ اللَّهُ لَهُ» فإذا كان البلاء عاماً كان للمستغفر فرج خاص وعناية خاصة.

يطلب من كل منا أن يراجع نفسه في خطئه الذي يخطئه فنحن أن نخاف أن يكون كل ما يحصل في البلد بسببه وهذا الأمر ليس على التهويل بل على الحقيقة.

أحد كبار الصالحين سُمِعَ وهو يدعو الله في عرفات بقوله: اللهم لا تَرُدَّ أهل الموقف بسببي.

(روي أنه لحق بني إسرائيل قحط على عهد موسى -عليه السلام- فاجتمع الناس إليه فقالوا: يا كليم الله.. ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث.

فقام معهم وخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفاً أو يزيدون فقال موسى: إلهي اسقنا غيثك، وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضع، والبهائم الرتع، والمشايخ الركع فما زادت السماء إلا تقشعاً والشمس إلا حرارة.

فقال موسى: إلهي إن كان قد خَلَقَ جاهي عندك فبجاه النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم الذي تبعثه في آخر الزمان، فأوحى الله إليه: ما خَلَقَ جاهك عندي، وإنك عندي وجيه

ولكن فيكم عبد يبارزني منذ أربعين سنة بالمعاصي فناد في الناس حتى يخرج من بين أظهركم فبه منعتكم.

فقال موسى: إلهي وسيدي، أنا عبد ضعيف وصوتي ضعيف فأين يبلغ وهم سبعون ألفاً أو يزيدون؟ فأوحى الله إليه: منك النداء ومني البلاغ.

فقام منادياً وقال: يا أيها العبد العاصي الذي يبارز الله منذ أربعين سنة، اخرج من بين أظهرنا فبك مُنِعْنَا المطر.

فقام العبد العاصي فنظر ذات اليمين وذات الشمال فلم ير أحداً خرج فعلم أنه المطلوب فقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هذا الخلق افتُضحت على رؤوس بني إسرائيل وإن قعدت معهم مُنعوا لأجلي، فأدخل رأسه في ثيابه نادماً على فعاله وقال: إلهي وسيدي، عصيتك أربعين سنة وأمهلتني وقد أتيتك طائعاً فاقبلني فلم يستتم الكلام حتى ارتفعت سحابة بيضاء فأمطرت كأفواه القرب.

فقال موسى: إلهي وسيدي، بماذا سقيتنا وما خرج من بين أظهرنا أحد؟ فقال: يا موسى سقيتكم بالذي به منعتكم.

فقال موسى: إلهي، أرني هذا العبد الطائع فقال: يا موسى، إني لم أفضحه وهو يعصيني أأفضحه وهو يطيعني؟! يا موسى إني أبغض النمامين أفأكون نماماً؟! [التوابين لابن قدامة المقدسي].

الله يقبل منك أن تعود إليه مع كل أخطائك وآثامك يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38] فهؤلاء الكافرون فما بالك ونحن مؤمنون!!

فضل الله كبير لكن يطلب منا الرجوع إليه بصدق التوبة إليه بقلوبنا ثم الله يعيننا، ولا يغررنا وسوسة إبليس بقوله: (لقد تبت كثيراً ثم عدت فلا نفع لتوبتك)، فتب إليه ولو تبت في اليوم مئة مرة.

تأجيل التوبة إلى بداية الأسبوع أو الشهر أو حضور رمضان ينسيك التوبة فلا تدري لعل بعد هذه التوبة تلقى ربك.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي،**

يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» [الترمذي والإمام أحمد].

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

أعلى رتبة يتمناها الصالحون هي التوبة؛ لذلك قالوا: **أول طريق الوصول إلى الله التوبة، وآخر مراتب السالكين إلى الله استئناف التوبة.**

آخر سورة كاملة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سورة الفتح وفيها ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 3] .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؟» فَقَالَ: «خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا** ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: 1]، **فَتْحُ مَكَّةَ،** ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [مسلم].

قال ابن عمر رضي الله عنهما: (**فعاش بعدهما النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين يوماً**) [تفسير القرطبي].

وقال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: (**اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها، حتى تورمت قدماه، ونحل جسمه، وقَلَّ تبسمه، وكثر بكاؤه**) [تفسير القرطبي].

مما يُشرع فيه الاستغفار:

أ. **بعد الصلاة:**

عَنْ ثَوْبَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ:** «**اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**» [مسلم].

ب. **في رمضان:**

يقول النبي صلى الله عليه وسلم موصياً الصائمين «...**وَاسْتَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: خَصْلَتَيْنِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ، وَخَصْلَتَيْنِ لَا غِنًى بِكُمْ عَنْهُمَا، فَأَمَّا الْخَصْلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُمْ: فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَتَسْتَغْفِرُونَهُ...**» [البيهقي في الشعب، وابن خزيمة في صحيحه عن سلمان الفارسي].

ت. **في الزكاة:**

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 103-104].

وهكذا نرى أن التوبة والإقبال على الله مطلوبة من كل أخ فينا في عسره ويسره، وإقباله على الله وتقصيره وفي جميع أحواله.

مطلوب من كل أخ منا أن يراجع نفسه فيترك مخالفة أمر الله وفعل ما نهى الله عنه ليكون بقلبه نادماً تائباً إليه فيكون بذلك قد فهم على الله أمره ونهيه، أما من لم يفهم على الله أمره ونهيه فنخشى أن يتركه الله مع شهواته وأنانياته ونفسه وشيطانه فيهلك مع الهالكين في الدنيا والآخرة.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.